الوطن في الرواية النسوية العراقية
دراسة في ثلاثة نصوص مختارة

ا.د.نصرة احميد جدوع - كلية التربية للبنات – جامعة الانبار
nasrajadwe@yahoo.com

المستخلص

نحاول في هذه الدراسة تتبع موضوع الوطن في ثلاثة نصوص مختارة لأبرز الروائيات العراقيات ،وسنجد أن السمة الأساسية التي اشتركت فيها هي الذاتية المحضة وتشابه البنى السردية وآليات السرد مع انفراد كل منها بلغتها الروائية الخاصة تبعا لعوامل سيتم عرضها في القسم الخاص بكل نص،وانعكست الرؤى الخاصة لكل روائية وفقا للتجربة الذاتية التي نعثر على آثارها هنا وهناك،متفاوتة في شدتها ،وهي روايات تتبع النسق الواقعي الحاد في تعاطيه مع واقع قاس اعتاد أن يلقي بثقله على الروح العراقية على مر العصور،وهذه النصوص وفقا لسياقها الزمني هي:

الغلامة(٢٠٠٠) عالية ممدوح و حديقة حياة (٢٠٠٣)لطفية الدليمي و طشاري(٢٠١٣)أنعام كجة جي .

الكلمات المفتاحية: الرواية العراقية المعاصرة – الادب النسوي العراقي – دراسات ثيمية

Abstract
This study traces the image of homeland in three selected novels by notable Iraqi women novelists. These novels employ common subjective vision and narrative techniques. Yet, each novelist maintains her own unique voice. These novels are sharply realistic in dealing with hard Iraqi reality. These novels are Qulama (2000) by Aliah Mamdouh, Garden of Life 92003) by Lutifia Al-dulaimi, and Tashari (2013) by Anaam Kaja.

Key words: Contemporary Iraqi Novel – Contemporary Iraqi women Literature – Thematic Studies

مدخل

مثلت رواية القرن الواحد والعشرين نقطة تحول كبيرة في الرواية العراقية عموما والنسوية منها بوجه خاص،لاسيما بعد التحولات الكبيرة في العراق والعالم عموما، والتي انعكست بوضوح على النتاج الروائي العراقي لاسيما عند أدباء الخارج،وهو مصطلح برز في عقد التسعينات من القرن الماضي وعبر عن الأدباء الذين تركوا العراق اختياريا أو إجباريا لأسباب سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية ،ولابد من الإشارة إلى أن الأقلام الروائية النسوية العراقية قد احتلت منزلة طيبة على الساحة الأدبية العربية وترجمت العديد منها إلى اللغات المختلفة وكتب بعضها بلغات مختلفة كالفرنسية والانكليزية،ما منحها حيزا جيدا من الاهتمام الذي عزف عنه الإعلام المحلي العراقي بحكم القطيعة التي فرضتها

الظروف السياسية وما فرضه الحصار الثقافي والحروب المتتابعة من عزلة للمجتمع عن مثقفيه وأدبائه في الخارج.

وأمام التحولات الكبيرة في مجال حقوق الإنسان عموما والمرأة على وجه الخصوص في النصف الثاني من القرن السابق برز الاهتمام بالنتاج الفكري للمرأة خارج رقعة أوربا وأمريكا،وبدأت المرأة قي الشرق تتحرر شيئا فشيئا من قيود الجنس التي فرضتها ثقافات الشرق بشكل عام،ووجدت القضايا الكبيرة في حياة الأمم صداها في الأعمال الأدبية والفنية النسوية كما أضفت المرأة الأديبة على معالجاتها الأدبية لتلك القضايا مسحة إنسانية امتازت بالعمق والإحساس العالي بالجوانب التي تتجاوب مع طبيعة تلك القضايا،ومن القضايا التي حضرت بشكل كبير قضية الوطن باعتبار الرواية العراقية تميل إلى المضامين السياسية ،طالما أن تاريخ العراق السياسي حافل دوما بالتحولات الكبرى والأحداث المتعاقبة التي أملت على الرواية العراقية هذا الغور العميق في هذا التاريخ .

ونحاول في هذه الدراسة تتبع موضوع الوطن في ثلاثة نصوص مختارة لأبرز الروائيات العراقيات ،وسنجد أن السمة الأساسية التي اشتركت فيها هي الذاتية المحضة وتشابه البنى السردية وآليات السرد مع انفراد كل منها بلغتها الروائية الخاصة تبعا لعوامل سيتم عرضها في القسم الخاص بكل نص،وانعكست الرؤى الخاصة لكل روائية وفقا للتجربة الذاتية التي نعثر على آثارها هنا وهناك،متفاوتة في شدتها ،وهي روايات تتبع النسق الواقعي الحاد في تعاطيه مع واقع قاس اعتاد أن يلقي بثقله على الروح العراقية على مر العصور،وهذه النصوص وفقا لسياقها الزمني هي:

- الغلامة(٢٠٠٠) عالية ممدوح
- حديقة حياة (٢٠٠٣)لطفية الدليمي
- طشاري(٢٠١٣)أنعام كجة جي

ولترتيب نسق الدراسة سنتبع سياقات متوازية في كل قسم تبدأ بالروائية وجانب من سيرتها ثم موضوع النص ثم الثيمة الأساسية وهي موضوع الوطن.

أولا:الغلامة(٢٠٠٠) عالية ممدوح

احتلت الروائية عالية ممدوح مكانة مهمة وحظيت روايتها التي بين أيدينا المكتوبة بالفرنسية (الغلامة) بالاهتمام كونها نقد سياسي واجتماعي جريء جارح وهي لجرأتها منعت في اغلب الدول العربية (١)،وهي بدءا من العنوان تفصح عن عالمها الداخلي، لا لأنه خروج عن المألوف الدلالي واللغوي الشائع فحسب بل من خلال تفعيله روائيا،وهو أمر ينطبق على مجمل الأسماء في متنها،وهو ما سيشكل دلالة مهمة تفتح الطريق للدخول إلى عالم الرواية الداخلي(٢)،وهي رواية جريئة في تعريتها للأنظمة الطاغية التي تستعبد الأوطان والأرواح والأجساد،رواية مكشوفة لا تتوارى المؤلفة فيها عن قول أي شيء بتفاصيل دقيقة ترهب القارئ بجسارتها وعيشها مع أدق التفاصيل،وهو أمر نادر في الرواية العراقية بشكل عام .

للمؤلفة مجموعتان قصصيتان وخمس روايات هي:ليلى والذئب(١٩٨١)الولع(١٩٩٥)حبات النفتالين(٢٠٠٠)الغلامة(٢٠٠٠)المحبوبات(٢٠٠٠)،التشهي(٢٠٠٧)،كما أشرفت على تحرير جريدة الراصد في بغداد ١٩٧٥-١٩٨٠،وكتبت مقالاتها الأسبوعية في جريدة

الرياض١٩٨١،ونالت جوائز عدة أبرزها جائزة نجيب محفوظ للرواية العربية التي تمنحها الجامعة الأمريكية في العام ٢٠٠٤ عن روايتها المحبوبات الصادرة عن دار الساقي.(٣)

وفي توصيف الرواية تقول عالية ممدوح: بقيت ثلاثين سنة وأصوات الجلادين والضحايا في ذلك السجن القريب من بيتنا في أذني قبل أن أتمكن من كتابة الرواية،فيما قرضت الكاتبة الفرنسية هيلين سيكسوس الرواية بمناسبة صدورها بالفرنسية بالقول:إن الرواية القوى منها(أي صبيحة البطلة)ترميها في السجن،في مشفى المجانين،وفي الجنان(لست أنا ،إنها امرأة أخرى) تلك التي تروي عبر طاقات شعرية لا محدودة المغامرات التي تعيشها بطلة تتحول جاعلة من العراق في القرن الواحد والعشرين مسرحا لإنسانية مضحكة أكثر من كونها رائعة،وهي رواية صعبة توصف بالغنى والعمق وعبقرية التحليل والسرد بلغة منتقاة من قاموس الفجيعة العراقية كما إنها علامة فارقة ومضيئة في تاريخ الرواية العربية المعاصرة،كما إنها بانوراما حية للواقع العراقي في العصر الحديث منذ العهد الملكي وحتى العام ١٩٧٧ تتسم بالحيوية والتوهج حيث يتخلق التاريخ والواقع اليومي معا يدا بيد(٤).

تدور أحداث الرواية في واحدة من أكثر مراحل تاريخ العراق دموية وهي التي تنحصر بين ١٩٥٨-١٩٦٣ تلك الفترة المضطربة من تاريخ العراق ،وحيث مشاهد التعذيب والسحل لأجساد المتآمرين في الشوارع والذي طال حتى الوصي عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد ثم ثورة العنف الجديدة بانقلاب ٨ شباط

١٩٦٣ الدموي الذي نكل بالشيوعيين اغتصابا وقتلا تحت التعذيب في المعتقلات التي غصت بالآلاف من المعتقلين من الرجال والنساء (٥).

وهي تسرد قصة فتاة جامعية اسمها (صبيحة)تقيم عند خالتها في الاعظمية ببغداد وتعيش حياة طبيعية تدرس وتكتب وتترجم إلى أن يلقى القبض عليها في إحدى ليالي شباط عام ١٩٦٣ ويتم اقتيادها للتحقيق في ناد رياضي شهير في الاعظمية بسبب علاقتها ببدر ،وهو معارض ارتبطت معه بقصة حب وتتعرض للتعذيب والاغتصاب من قبل الحراس كغيرها من النساء المتهمات بالانتماء للشيوعية وغيرها من الحركات المعارضة آنذاك، ما شكل نقطة تحول كبيرة في حياتها تدفعها للانكفاء على الذات وترجع بالذاكرة إلى محطات عمرها وجانبا من سير حياة صديقاتها وعائلتها التي شكلت خلفية لأحداث حياتها الماضية في بيت العائلة.

ثم تتطور الأحداث بزواجها من ابنة خالتها المعتوه للتستر على فضيحة حملها وينتهي بها الأمر جثة هامدة على ضفة النهر.

والرواية تدور في الفلك الذي يدور فيه السواد الأعظم من الأدب الروائي العربي والعراقي على السواء وهو السياسة والمجتمع، وقد جسدت الرواية النسوية العراقية هذا التوجه الذي امتزج بالجانب الذاتي للانا الذي يطغى على الكتابات النسوية بشكل عام،وعلى الرغم من أن الوطن يمكن أن يكون طرفا جانيا بقدر كونه مجنيا عليه في هذه الرواية إلا انه يمثل في حقيقة الأمر البعد الثاني الموازي في وجوده لشخصية البطلة (الروائية المشاركة)،فاستلاب الذات(روحا وجسدا)في نهاية الأمر يحاكي استلاب الوطن،كلاهما مستباح بلا حقوق ولا قيمة

في نظر الجلادين (فمي مر ولساني ناشف لما سحبت سحبا من العربة ،كنت أريد الذهاب إلى المغسلة رأسا لكنهم رفضوا، قدرت من عدد الرجال وأشكالهم من هيئات الذين مررنا بهم أو مروا بنا ونحن بينهم،إن جهاز الدولة العراقية ومنذ الاستقلال وقبل الانتداب وبعد الثورات كان يظهر أمامي في تلك الليلة من فجر التاسع من شباط في العام ثلاثة وستين ،لم اضطر لإغماض عيني كما يفعل البعض حين يتذكر،كانوا فقط:أبناء أمهم ،قرأت ذلك فعلق يوما بذهني،لما سئل احد رؤساء الشرطة السابقين في مكان ما من الكرة الأرضية (ترى كيف ستفرق بين القتلة وغيرهم؟اعني كيف يبدو المجرم؟..أجاب بدون تردد:فتاة يبدو كفتاة،اعني يبدون فتيات معاقات قبل أن يتحولوا إلى مجرمين يبدون ناعمين رقيقين مملوئين بالأسرار والشفافية ،وجوههم تجمع بين الرجولة والأنوثة ..)(٦)

والرواية حادة وجريئة في تعاطيها الموجع مع الوقائع تمتزج فيها التجربة الشخصية بالحقيقة التاريخية للأحداث،تنغمس في واقعيتها المفرطة حيث الوصف الدقيق للأمكنة:(في تلك اللحظة ونحن ندور حول ساحة عنتر بن شداد الكبيرة الشاسعة والعريضة جدا كانت الأشجار والأوراد والرياحين والأغصان والغبار وأزيز الطائرات البعيدة في السماء وأشياء كثيرة لا أجيد تعداداها الآن ،كلها كانت تتحرك أمامي دفعة واحدة الصور مسرعة ،العربة والكائنات أيضا،أطلق صرخة واعض على شفتي وقبة النادي الاولمبي ببنائها العتيق الأزرق الفاهي تلوح أمامي.....فشاهدت رفوفا وطاولات تحولت إلى أشياء أخرى ،أسرة صيفية جميلة وبطانيات معكرة اللون والأرضية عارية مخازن دواليب وأعلام عراقية صغيرة وكبيرة ومتوسطة،بيارق بألوان متفاوتة في القدم مدبوغة بفعل التهابات الشمس

العراقية)(٧)،ومع ذلك لم تخرج عن فنيتها وهو أمر يتعلق بالرواية بوصفها فنا لا سردا مجردا ،فهي على حد تعبير احد الباحثين لا تتقمص الواقع بل الوجود،والوجود ليس ما جرى بل حقل الإمكانيات الإنسانية،كل ما يمكن للإنسان أن يصيره،كل ما هو قادر عليه ،فالروائيون يرسمون خريطة الوجود أثناء اكتشافهم هذه الإمكانيات البشرية(٨) .

على إن هناك مسالة لابد من الإشارة إليها وهي ان تقديم مجموع الأحداث من قبل الشخصية الأساسية وحدها زاد من أهمية الفعل والواقعية الوصفية تجاوزت في النص وظيفتها الاثباتية أشركت القارئ في تمثل الأحداث على الرغم من عنصر الجرأة والانكشاف في الرواية،وهو بالضبط ما عبر عنه احد الباحثين حين رأى أن هذه الواقعية في الرواية تمنحها وظيفة الكاشف السيكولوجي والتي تحقق انغمار القارئ في العالم التخييلي كما يبدو للشخصية الروائية ليسهم ذلك في التمثيل غير المباشر والفعال لحالاتها النفسية.(٩)

بالإضافة إلى ذلك فقد كان الوصف الدقيق للوقائع والمشاعر وتفاصيل ردود الأفعال يغرقها في واقعيتها أكثر فأكثر،وحين نغوص في التفاصيل ونتنقل مع الأحداث بين الأمكنة والشخصيات التي تنصهر في مستوعب الذاكرة نتنقل من مأساة إلى أخرى..ذلك لان الماضي الذي عمدت الشخصية إلى استحضاره يكتسب قتامة مأساوية لان خط التذكر لم يكن باتجاه واحد، كما لا نعرف للشخصية وطن مكاني محدد فالبيت الذي نشأت فيه وبيئة العمل والدراسة التي تكونت فيها علاقاتها وبيت خالتها في الاعظمية لم تكن أمكنة ترتبط بالشخصية خارج إطار الأماكن المجردة،وفي إطار الصورة الأكبر نجد انه في النهاية لا يبدو أن هناك وطنا

آمنا يحتوى الإنسان ،بل هو عبارة عن غرفة تعذيب ومعتقل كبير يحتوي الإنسان وأحلامه وماضيه وحاضره ويحكم على مستقبله بالإعدام،وكان طبيعيا أن تكون النهاية الموت غرقا في دجلة بفعل فاعل أم بشكل انتحاري مقصود حيث الموت هو الوطن النهائي.

باختصار إنها رواية ترسم ملامح اللاوطن –إن صح التعبير– لان الجسد فيها كان أكثر مكان عاشت فيه الشخصية الساردة الرئيسية فيها،والوطن المكاني والمعنوي المتعارف عليه لم يكن أكثر من جلاد يصادر الحرية والخصوصية والأحلام ويمارس انتهاك الوجود الإنساني،حيث يأتي السؤال الذي يقحم نفسه من زحمة التذكر أثناء علاقة عابرة مع (رامي):هل هذه هي الأرض العراقية الأولى؟أم هو سرير فلانة الفلانية في البيت العراقي كذا وكيت؟.(١٠)

ثانيا:حديقة حياة (٢٠٠٤) لطفية الدليمي

لطفية الدليمي قاصة عراقية معروفة واسم كبير في الأدب النسوي العراقي والعربي، نشرت قصصها في معظم الصحف والمجلات الثقافية العراقية والعربية في مصر وتونس والمغرب وسوريا والأردن واليمن وغيرها،أسست عام ١٩٩٢ مع مجموعة من المثقفات العراقيات منتدى المرأة الثقافي في بغداد،وترجمت قصصها إلى الانكليزية والبولونية والاسبانية والألمانية كما ترجمت روايتها عالم النساء الوحيدات إلى اللغة الصينية،أسهمت في حوار مع كتاب وكاتبات من فرنسا في الأسبوع الثقافي الفرنسي في بغداد ٢٠٠٢،قدمت اطاريح ورسائل جامعية عن أعمالها في عدد من الجامعات العراقية والأجنبية،وهي عضو مؤسس في المنبر

الثقافي العراقي،والجمعية العراقية لدعم الثقافة ثم أسست سنة ٢٠٠٣ في بغداد مركز شبعاد لدراسات المرأة رئيسة تحرير مجلة هلا الثقافية العراقية.

من أعمالها ممر إلى احزنا الرجال(١٩٧١)البشارة(قصص ١٩٧٥) التمثال(قصص١٩٧٧)إذا كنت تحب(قصص ١٩٨٠)عالم النساء الوحيدات (رواية١٩٨٦)بذور النار(رواية ١٩٨٨)خسوف برهان الكتبي(رواية (اسبانيا٢٠٠٠) حديقة حياة(٢٠٠٣)وغيرها كثير إلى جانب مسرحيات ودراسات كثيرة.(١١)

أما الرواية التي بين أيدينا فهي تدور في سنوات الحصار وما تلاها من حرب احتلال العراق ٢٠٠٣ التي قادتها الولايات المتحدة وحلفاؤها ضد العراق بعد غزو الكويت وما تبع هذه الحرب من حصار وتجويع وتدمير للبنى الاقتصادية والعسكرية وحتى الإنسانية للعراق،وهي ليست الوحيدة التي عالجت موضوع الحرب والحصار وآثارهما المدمرة على الإنسان العراقي وتحديدا المرأة العراقية ،فهناك روايتها(سيدات زحل)وفيها شخصية (حياة البابلي) ،وهي تسرد الوقائع بإطار تاريخي حافل بفواجع بغداد وهي هذا الصدد تتطابق مع رواية(حديقة حياة)،وكذلك في الجزء المتعلق بشخصيات نسوية أخرى في الرواية ومنها شخصية (سوزان) .(١٢)

وبطلة القصة (حياة) زوجة احد المقاتلين الذين سيقوا إلى الحرب ولم يعودوا أو فقد أثرهم بسبب الأسر أو القتل ،وتحملت لوحدها عبء تربية ابنتها الصغيرة ميساء التي ستختبر هي الأخرى غيابا آخر يمثل وجها من أوجه غياب من تحب (زياد)ابن جارتهم رويدة الذي كان آخر من تبقى من أهله بعد أن استشهدت العائلة بأكملها والمكونة من الأم والأب هشام وطفلتين توأمين هما زها وزهراء

اثر سقوط صاروخ أمريكي على بيتهم ذات أمسية من أمسيات القصف العشوائي على بغداد..وكان يومها في ضيافة احد أصدقائه في منطقة أخرى من بغداد(١٣) ، وبقي يعيش مع حياة في بيتها لتولد بينه وبين ميساء علاقة حب لم تكتمل فصولها رغم خطبتهم بسبب شعوره بالحرج وهو يرى نفسه يتحول إلى عبء مادي يضاف إلى أعباء حياة رغم انه كان يعمل أيضا ، ومن منظور آخر في التعامل مع الوطن والذي ساد عند الكثير من العراقيين آثر الغربة بعد أن حصل على اللجوء في إحدى الدول الغربية ،وحاول عبثا إقناعها بمرافقته أو اللحاق به،حتى كانت نهاية علاقتهما بعد أن افترقت بهما الطرق ،وهو أنموذج الشخص الذي أنتجته الحروب والذي يحمل مبررات هروبه بقناعة مصطنعة،تقول ميساء في إحدى أوراقها:(يتوهم زياد انه اجتاز مياه بحر الموت وانه سيفوز بعشبة السعادة ويقطف ثمرة الثراء والمجد ،لم يدرك انه افلت بجسده ولبثت الروح تصارع المسافات وتقاوم تبدلات الريح..اكتب له: رأيتك في الحقيقة تفرجت على صورك التي أرسلتها،أنت ترتجل عرضا مسرحيا وترتدي قناعا وتخفي يديك بقفازين أبيضين).(١٤).

ومع حياة حديقتها الصغيرة التي تحولت إلى وطن مصغر بديل ثم لاحقا إلى مكان روائي تجتمع عنده آمال الشخصيات المتنوعة وقضاياها وأزماتها بل وترتسم فيها فصول التحول الأكبر في حياتها وحياة باقي الشخصيات.

وتتوالى الأحداث التي تتصاهر في دائرة الوطن الذي لا يريد الكثيرون تركه والهرب رغم أزماته،ومنهم (سوزان) زميلتها في العمل وهي امرأة ثرية ورثت أمجاد ثروة أبيها تاجر السجاد الكبير وبقاياها المتمثلة في القصر المطل على دجلة كانت

آخر من تبقى في العراق بعد أن هاجر من تبقى من عائلتها، وقررت البقاء في البلد ولم تهاجر رغم الحصار وتردي الأوضاع الاقتصادية عموما ،وهي تعاني غربة أخرى بسبب فشلها في الارتباط بمن خطبها (عبد المقصود غنام) الرجل الثري الذي عاقبها ومن قبله (غسان) المصور الذي كانت منبهرة به ثم اضطرت لهجره بسبب الفوارق الاقتصادية، لتدور العجلة وتتداخل الأحداث لتلقيها في غربة شخصية داخل الوطن الذي آثرت البقاء فيه، وارتبطت أيضا بحديقة حياة من خلال إيثارها الجلوس فيها كلما زارت منزل حياة وحيث تكتسب سوزان رونقا خاصا عند دخولها الحديقة:(تحتفي أشياء الدنيا بسوزان،تتراقص زهور الجهنميات في نسيم الصيف على قدميها وتدور الفراشات من حولها وهي تهبط من سيارتها أمام بيت حياة وينفتح في الهواء الساخن ممر ضوئي لمرورها ويتردد صدى خطواتها على بلاطة ممر الحديقة).(١٥)

إلى جانب شخصية (أنيسة) وهي ابنة أخت حياة التي تعاني من(السرطان) وتموت بعد معاناة في بيت حياة بعد أن ارتبطت هي الأخرى بحديقة حياة بطريقة ما حتى تحولت بالنسبة إليها إلى ما يشبه الملاذ من الألم.(١٦)

وتمثل الحديقة بالنسبة لحياة وطنها المصغر كما أنها خلفية تتجمع عندها الأحداث وهي في الوقت ذاته مهرب دائم من ضغوطات الخوف والفاقة وشظف العيش بسبب الحصار الخانق الذي ظل العراق يئن تحت وطأته والذي ألقى بظلاله على الأرواح المتعبة التي أنهكتها الحروب المتتابعة..لاسيما وان حياة كانت تعمل مدرسة براتب قليل ما اضطرها للعمل الإضافي الذي كان مردوده بالكاد يسد الحاجات الحياتية وتعليم ابنتها ودروس الموسيقى التي كانت تواظب عليها

وهي التي حرصت (اي ميساء)على أن تتحقق أمنية والداها بدراسة التاريخ والموسيقى كل على ما كان يتمنى ان يراها لحظة ولدت وهي ثمرة الحب الغالية،كما أنها مثلت ملاذا لآمال الشخصيات الأخرى من الذين جمعتهم على اختلافهم.

وتجسد شخصية حياة في تمسكها بالبقاء رغم أن جميع الناس في شارعها قد غادروا هربا من القصف وخوفا من الآتي الغامض الذي تنذر به الأخبار الوجه الايجابي في عتمة الأجواء السيئة: (كانت حياة تراهم يغادرون البيوت يسيرون في الزمن ولا يرتحلون في المكان، الأمكنة متماثلة تحت الريح والمطر والخوف يسيرون دون بوصلة ..تتساءل حياة:كيف بوسع الإنسان أن يذهب ولا يعود؟؟..بعضهم كان مستعدا لدفع نصف عمره مقابل ان ينأى عن الموت ولكن..تقول حياة..ماذا سيفعل بالنصف المتبقي من العمر؟؟)(١٧) في ثنايا التفاصيل التي تعيشها حياة تحت ظروف القصف والغارات تتمسك بالبقاء حتى وان كان ضربا من الجنون(فلكل شخص جنونه الخاص في النهاية)..

وبهذه الروابط غير المقصودة بين الحديقة والشخصيات المتنوعة في القصة تتحول الحديقة إلى ما يشبه (الوطن المصغر) والمهرب بعد أن ضاق الوطن الحقيقي بالجميع ،كما أنها رمز يختزن معاني الألفة والدفء التي تفتقدها جميع الشخصيات بشكل أو بآخر، ثم تحولت لاحقا إلى مكان فارق ومنعطف للأحداث من خلال اجتماع الذي الشخصيات التي تتحرك على رقعة النص بدءا بحياة نفسها، ثم تحولها إلى مجتمع مصغر يفتح آفاق انعطافة كبيرة تتمثل في عثور حياة أخيرا على خيط لم تتوقعه يصلها بزوجها المفقود وهو الذي صوره غسان صدفة حين التقى به في احد شوارع بغداد وكان فاقدا للذاكرة.وشده إليه إحساس غريب

لم يفهمه...فلمحته لحظة عرض لوحاته في معرضه الذي أقامه في حديقتها بمشورة سوزان حين لم يستطع تحمل تكاليف إيجار قاعة العرض.(١٨)

وفي هذا التمثل لجوانب الحكاية التي ترويها الرواية نلمح ثلاثة أشكال من علاقة الإنسان بالوطن بمعناه الحقيقي ومعناه الرمزي الذي تجسده الحديقة وهي نفسها تمثل درجات للمواطنة وهي:

١- الجانب الأرفع للعلاقة وهو المتمثل بحياة التي كانت الحديقة عالمها الآمن ووطنها الصغير وتتجسد هذه العلاقة في قول حياة مخاطبة سوزان:(انظري إلى هذه الحديقة المتواضعة الصغيرة التي لا تقاس بحديقتك وأشجارها الغريبة وأزهارها الغريبة وخمائلها وبركة السباحة فيها وموقعها على النهر ..هذه الحديقة الصغيرة بكل تواضعها تمثل لي امتدادا للبيت والحياة وهي نبع ذكرياتي وكنز أسراري وواهبة البقاء، وحين تضيق بي الدنيا ألوذ بها فتخفف عني وطأة أحزاني ومتاعبي..أرعى زهرة هنا وعشبة هنا كي تذكرني الروائح بأزمنة سعادتي في هذا البيت)(١٩)

٢- العلاقة التي تمثل أصحابها في الحديقة مهربا من الواقع والتي نشأت بفعل علاقتهم مع (حياة).

٣- علاقة سلبية تتمثل بالفشل في الحفاظ على الرابطة التي تربط الشخصية بالوطن ولا حتى بالحديقة وتتمثل في(زياد) الذي قضى جزءا من حياته في بيت (حياة)وانتهى به المطاف في الغربة.

إن السبب الرئيس الذي يقف وراء قرب الرواية بموضوعها وتفاصيلها من القارئ لا يكمن في واقعيتها المحببة القريبة إلى النفس وحسب ولا إلى قدرة الكاتبة وحدها ،رغم إمكانيتها العالية بل لكونها نجحت بامتياز في محاكاة التاريخي الذي حصل فعلا ،إذ أنها نجحت بامتياز في استثمار الحيز الروائي الموازي للمكان الجغرافي الذي كان مسرحا للأحداث التاريخية التي وقعت فعلا.(٢٠)

ثالثا:طشاري(٢٠١٣)أنعام كجة جي

روائية وصحافية عراقية مبدعة،واسم لامع في الأدب النسوي العراقي،من أعمالها لورنا، سنواتها مع جواد سليم(١٩٩٨) سيرة روائية،العراق بأقلامهن،محنة العراق بأقلام نسائه-نصوص من الأدب العراقي- بالفرنسية دار لوسيريان ابلوم٢٠٠٣،،سواقي القلوب(٢٠٠٥)،الحفيدة الأمريكية (٢٠٠٩)وهي إحدى روايات اللائحة القصيرة للجائزة العالمية للرواية العربية البوكر ٢٠٠٩،ومثلها رواية طشاري(٢٠١٣) التي رشحت لها أيضا.(٢١)

روايتها التي بين أيدينا تسرد قصة طبيبة مسيحية اسمها وردية اسكندر من الموصل تنتقل وعائلتها إلى بغداد تدرس الطب وتضطر للعمل في مدينة الديوانية التي سرعان ما تتحول إلى سكن دائم بحكم زواجها فيها من قبل احد زملائها الأطباء، لتتطور علاقتها بالمكان والناس بشكل عفوي بحكم قلة الأطباء الذين يستقرون في تلك المدينة النائية ،بدءا من المريضات اللآتي احتفظن بعلاقات قوية معها حتى بعد أن انتقلت إلى بغداد ومرورا بالعلوية شذرة المرأة صاحبة المنزلة

العالية لدى أهل الديوانية جميعا وشخصيات أخرى متنوعة تتحرك على مساحة النص أو تظهر مرة واحدة وتمثل انعكاسا للعلاقة العميقة التي تربطها بالمكان والناس فيه،ثم تتسارع الأحداث وتنتقل إلى بغداد وتحت وطأة التعقيدات التي تلت احتلال العراق ٢٠٠٣ وما تعرض له المسيحيون من قتل وتهديد وتفجير للكنائس،ما اضطر أبناؤها (هندة وبراق وياسمين) إلى مغادرة العراق الواحد تلو الآخر،الأولى إلى كندا وبراق في جزيرة هاييتي البعيدة وياسمين شحنت إلى دبي للارتباط بشخص بزواج مرتب بعد أن تلقت العائلة تهديدات بالقتل ما لم يتم تزويجها لزعيم جماعة متطرفة من تلك الجماعات التي نمت في رحم الاحتلال وتسلطت على مختلف الطوائف والمذاهب والأديان في العراق:(هربوها من البلد بعد رسائل التهديد التي كانت ترمى من فوق السياج يجدونها في الصباح مثل طائر ميت ملقى على الثيل الأخضر المعتنى به .."السلام على من اتبع الهدى ،إما بعد فعندكم عشر أيام لتنفيذ هذه الفتوى وإعطائنا بنتكم زوجة حلالا لأمير جماعتنا ا وان نذبحكم كلكم ونأخذ بيتكم يا كفار والى جهنم وبئس المصير")(٢٢)

وتتعمق المحنة وتحاصر الجميع ليتحول الوطن إلى سجن كبير:(لا يلتقي الأقارب إلا في الجنازات ،والنزهات غير مأمونة والمناطق مقسمة والزيارات تبعث على القلق وحتى حضور القداس في الكنيسة يمكن أن ينتهي بفاجعة).(٢٣)

رسائل الكراهية التي كان الوطن يبعثها لأبنائه وردية وغيرها ممن راحوا ضحية تفجيرات الكنائس جعلتها تتبعهم بعد عناد وامتناع، بعد أن حاصرها الخوف والوحدة والمرض وتردي الأوضاع :(وبدأ يراودها هاجس أن تهاجر مع من يهاجرون وكانت كندا هي الوجهة المثلى طالما أن ابنتها البكر هندة تقيم هناك

لكنها ظلت تنفض رأسها طاردة الفكرة..."أموت واندفن هنا ولا اتهجول")حتى تصل إلى القناعة النهائية تحتفظ بأمل العودة بعد قرار الرحيل الصعب عن وطن مخطوف(خطفوا الوطن وتركونا نعلق مفاتيح بيوت أهالينا على جدران هجرتنا نحلم بجسر العودة ..سنرجع يوما إلى حينا).(٢٤)

فشلت محطات غربتها اللاحقة في أن تكون وطنا بديلا، وكانت محطتها الأولى عند ابنة أخيها في فرنسا التي تعاني الم الغربة المزمن وتعكف على كتابة ديوان شعر تسميه(طشاري)وهو عنوان الرواية نفسه والذي يعبر باللهجة العراقية عن التفرق وهنا يمثل تفرق العوائل والأقارب في أصقاع الأرض(٩٠)،وفي هذا الجانب فان الرواية بحسب احد الباحثين تفضح عن تشظي الذات العراقية جراء ما أصابها من أحداث وتحولات سياسية واجتماعية ساهمت في إحداث هذا الشتات والتبئير للذات العراقية وتمزيق هويتها الوطنية.(٢٥)

وهناك تقيم أولا مع عائلة وتلتقي بالرئيس الفرنسي نيكولاي ساركوزي ضمن وفد مسيحيي العراق الذين استقبلتهم فرنسا، كما التقت بابا الفاتيكان الذي كان في زيارة لفرنسا ،وحملت عليه العتب في سرها لأنه وصل إلى حدود العراق وامتنع عن زيارة مسقط رأس إبراهيم النبي(عليه السلام) في مدينة أور رغم ما قيل عن رفض الحكومة العراقية تامين زيارته وعدم تصديقها لذلك السبب واعتقادها أن السبب يعود أصلا للتخلي عن المسيحيين في العراق وغض البصر عما يتعرضون له من اضطهاد،لتفشل الديانة في أن تكون وطنا بديلا عن الوطن الذي تركته مجبرة وحاول الغربيون تصويرها سببا مقنعا لاستبدال الوطن بأرض أخرى.

وأثناء الرواية نلمح نوعين من الارتباط بالأماكن بوصفها تمثل الوطن في منظور الشخصية الرئيسية ومعها بعض الشخصيات الأخرى هما:

١- الارتباط بوطن مكاني يمثل أهم مكان بالنسبة للشخصية الرئيسة وهو هنا مدينة الديوانية.

٢- الارتباط بالوطن بمفهومه الأعمق وهو هنا العراق الذي استباحه المجرمون وطُرِد منه أهله الأصليون الممثلون هنا بالمسيحيين،وهذا الفضاء يمتد على مساحة زمنية طويلة تقارب القرن، ولسنا مع الرأي القائل بان أحوال العراقيين ما قبل الحرب قد نالت النصيب الأكبر في الرواية متجاوزة ويلات الحرب والتهجير القسري ،لان الرواية بالأصل تجسد مأساة التهجير الذي كان نتيجة مباشرة من نتائج الحرب ،لكنها نجحت في زيادة وعينا بقضايانا ورسخت إيماننا بأننا محكومون بالعمل والكفاح والمقاومة على ألف جبهة وجبهة. (٢٦)

في سياق النوع الأول يظهر الارتباط في دهشة الشخصية من سرعة اعتيادها على المكان بعد أن عانت أول الأمر من مرارة البعد عن الأهل أول مجيئها للديوانية : (كيف لم تعرف أن شمس الديوانية ربما تحتوي مرهما للفراق وان دموعها ستجف بأسرع مما تصورت؟).(٢٧)

وفي حوارها مع ابن ابنة أخيها تظهر بوضوح طريقة الارتباط بالوطن حتى بعد الموت:(تأتي إليهم فينفتح خزان الأسئلة في عقله،لا يفهم لماذا تبدو العمة وردية مهمومة رغم أنها خرجت سالمة من بلد يموت فيه الناس مثل الذباب...

_ عمة إلا تحبين باريس؟

- أحبها لكنني لا أريد أن أموت وادفن في فرنسا.
- هاي هيّ المشكلة؟

كلهم يحبون فرنسا لكنهم يريدون أن يدفنوا هناك في البلدان التي جاؤوا منها)(٢٨)،وهي في هذا الجانب رواية مبنية على التوازي بين فضائين ،فضاء التشتت والإقصاء عن الوطن،وفضاء الترعرع في ربوع الوطن.(٢٩)

ويبدو ارتباط الشخصية بالمكان جوهري إذ لم يكن المكان وجودا جغرافيا خاويا بل حيزا روائيا مفتوحا،كان فيه (الوطن)بمسماه المعنوي حاضرا في وجدان الشخصية،وظلت(بغداد والديوانية) تنتقل مع الشخصية،وتلك مهمة الروائي المحترف الذي يستطيع أن يتعامل مع حيزه تعاملا بارعا،فيتخذ منه إطارا ماديا يستحضر من خلاله كل المكونات السردية الأخرى كالشخصية والحدث والزمان ،بل هو خشبة مسرح تعرض الشخصيات من خلالها أهوائها وهواجسها ونوازعها وآمالها وآلامها.(٣٠)

وترك الارتباط بالمكان/الحيز بصماته على تفكير الشخصية ورؤيتها للأمور حتى لو تحولت في تمسكها بهذا الارتباط إلى حالة شاذة ،وهنا يتحول الحيز إلى أرقى ما يمكن تخيله ،أي حين يتحول بفعل السرد من مجرد حالة يتم تمثلها ذهنيا أثناء القراءة إلى الاستحضار القائم على التصوير الحسي الملتقط بالبصر(٣١)، والدليل هو التوصيف الذي تندرج ضمنه الشخصية في حالة من حالات تمسكها اليائس بالمكان(وهو الوطن هنا)،فهي المرأة العصية التي أبت أن تترك وطنا تركها الآخرون رغم امتلاكها أدوات الهرب الوظيفة والديانة وهما سمة دخول مضمونة لكل من يرغب باللجوء إلى أي بلد(كان السفر أمنية العراقيين في تلك السنوات

وما تلاها لكن عمتي بقيت في مكانها لا تتزحزح ..كلهم يهاجرون الاها.. أطباء وطبيبات ضباط وشعراء وصحافيون ومطربون ورسامون وأساتذة جامعات دلالات ..وهي مقيمة مابين بيتها وعيادتها..الليل في البيت والنهار في العيادة..وكانت ياسمين رفيقتها وونسها قبل أن تتزوج وتطفر وراء الحدود مثل هندة وبراق ..كلنا سبقناها ولعبنا الطفيرة وظلت هي على عنادها..)(٣٢)

وتبدأ ملامح علاقتها بالوطن بصورتها الأوضح وهي لم تزل بعد في الثانوية(في الثانوية تعرفت وردية إلى معاني حب الوطن وكان في صفا أربع طالبات مسلمات واثنتان مسيحيتان وسبع عشرة يهودية،إنها المكلفة بجمع التبرعات لضحايا المظاهرات من الطلبة الجرحى برصاص الشرطة،لا تتأخر في الذهاب إلى اليهوديات فيتبرعن مثل الأخريات على مضض أو عن طيب خاطر ،أحب اليهود موطنهم الذي وفر لهم عيشة طيبة وكانوا يعرفون أن التوراة كتبت في بابل ولم تكن الصراعات السياسية في تلك الفترة المبكرة قد أفسدت النسيج الاجتماعي البغدادي)(٣٣)، هنا تتحدد ملامح الوطن الحلم –النموذج–المثال الذي ظل مقياسا للوطن كما تراه الشخصية،أرضا واحدة بلا طائفة أو مذهب أو دين تحدده قيمة واحدة هي الانتماء للأرض وحسب،وهي رؤية ناضجة تطرحها الرواية ستحدد لاحقا طبيعة تعاطي الشخصية مع الأحداث والانتقالات المكانية التي تحتم عليها القبول بمبدأ الهجرة الإجبارية عن الوطن.

وتتغلغل هذه الصورة في الخيال كلما طال أمد الابتعاد عن الوطن، وتفرض صورة التشرذم والمنافي التي تمزق الأسرة الواحدة على الشخصية التي تصر على البقاء نمطا من التتبع الإجباري يتضح في معاناتها في مغتربها الأول(فرنسا) :

(الساعة هي الآن السابعة صباحا في باريس،التاسعة في بغداد العاشرة في دبي مازالوا في منتصف الليلة الماضية في مانيتوبا وهي الواحدة بعد منتصف الليل في هاييتي،كان جزارا تناول ساطوره وحكم على أشلائها أن تتفرق.... يغيب الجزار وتطلع من فلم الكرتون ساحرة شريرة تمسك بعصا البدد السحرية،ترفعها عاليا في الهواء ثم تضرب بها بقعة من الأرض كانت خصيبة آمنة من الزلازل محروسة بين النهرين مأهولة بمليون نخلة ،طافحة بذهب اسود جاثمة على فوهة خليج ملتبس بين عرب وفرس..تضرب الساحرة طاردة أهل تلك البلاد إلى أربعة أطراف الدنيا تبددهم بين الخرائط وهم دائخون لا يفقهون ما يحل بهم)(٣٤)

باختصار تمثل طشاري رواية الوطن المفقود،الذي تأطر بصورة الحلم البعيد وكل ملامح الماضي الجميل الذي لا ينفتح على آفاق ايجابية مهما تعددت الأصقاع التي استقرت بها الشخصيات المتنوعة في الرواية حتى القليلة الحضور،فباريس وكندا وهاييتي ودبي وقبلها عمان فشلت في أن تحتل حيز الاهتمام كونها مجرد أماكن لا قيمة لها على الرغم من كونها تمثل حلما لأكثر العراقيين في سنوات الحصار والحرب والتهجير،وهو أمر تفترق فيه هذه الرواية عن سواها بكونها لا تصرح بحب بات مألوفا للوطن بل ترسم ملامح هذه العلاقة المصيرية الحميمة وتنثرها على مساحة النص خلف الأحداث والتفاصيل التي تدور هنا وهناك سواء للشخصية الرئيسية وهي الدكتورة وردية أم لغيرها من الشخصيات.

ولو أردنا عقد مقارنة بين الروايات الثلاث من حيث صورة الوطن وحضورها لوجدنا أن الوطن في الغلامة كان غائبا جغرافيا على الرغم من تعدد الأمكنة الواردة الدالة عليه وهو يظهر فيها بصورة الجلاد ،في حين أن الوطن

الحاضر في رواية حديقة حياة اختزل في (الحديقة)في حين تجسد الحضور المكاني والحياتي للوطن بأوضح صوره في رواية طشاري،وهو تفاوت فرضته زوايا الرؤية الفنية والموضوعية وطرقة تعاطي الذات مع أزماتها الخاصة،وباختصار كان وطنا متفاوتا في وضوح صورته في عيون نسائه المبدعات.

الهوامش

١- ينظر لغز عالية ممدوح-محمد رضا نصر الله- جريدة الرياض-١٤- ديسمبر ٢٠٠٤.

٢- ملاحقة التسمية في رواية الغلامة للروائية عالية ممدوح –مقداد مسعود- موقع الحوار المتمدن ٢٠١٤/٣/٢.

٣- رواية عالية ممدوح الغلامة الممنوعة في معظم الدول العربية تصدر بالفرنسية-جريدة الأنباء الكويتية الأحد ٢٨ ديسمبر ٢٠١٢،عالية ممدوح :فضاءات-صحيفة الوسط البحرينية –العدد ١٦٨٦-الخميس ١٩ ابريل ٢٠٠٧.

٤- غلامة الوجع العراقي تقرأ بالفرنسية-هدى إبراهيم-ميدل ايست اونلاين-٢٠١٢/٢/٣.

٥- الرواية العراقية –رصد الخراب العراقي في أزمان الدكتاتوري والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف/٢.

٦- الغلامة/٢٠.

٧- نفسه/٢١.

٨- فن الرواية/٤٨.

٩- ينظر الرواية العربية ورهان التجديد/١٦٤.

١٠- الغلامة/.١٨١.

١١- لطيفة الدليمي-موقع الناقد العراقي.

١٢- لطفية الدليمي في رواية سيدات زحل:سيرة ناس ومدينة تحتضر-أسامة غالي-مجلة الغد-العدد ٤٧٢ -الأربعاء ٨كانون ثاني ٢٠١٤ /٣.

١٣- حديقة حياة/ ٩٥-١٠٥.

١٤- نفسه/٥٧-٥٨.

١٥- نفسه/٦٠.

١٦- نفسه/.٣٠-٣٩

١٧- نفسه/٤٤.

١٨- نفسه/١٧٠.

١٩- نفسه/٦٢.

٢٠- في نظرية الرواية/٨٥

٢١- شعرية السرد في رواية طشاري-صحيفة البينة الجديدة-٢٧ ديسمبر ٢٠١٤.

٢٢- طشاري/١٢٩.

٢٣- نفسه/١٣١.

٢٤- نفسه/٤٠، ٦٨.

٢٥- التجليات الثقافية والإيديولوجية للحدث في الرواية العراقية –قراءة في رواية طشاري للكاتبة أنعام كجه ججي-حيدر جمعة العابدي موقع الحوار المتمدن-٢٠١٤/٩/٢٧

٢٦- مقاومة بمنازل كثيرة-قراءة في رواية انعام كجة جي طشاري-د.الراهبة مريم فرنسيس-..موقع الملتقى الثقافي الجامعي.

٢٧- طشاري /٣٣.

٢٨- نفسه/٢٧.

٢٩- مقاومة بمنازل كثيرة-قراءة في رواية انعام كجة جي طشاري-د.الراهبة مريم فرنسيس-..موقع الملتقى الثقافي الجامعي.

٣٠- طشاري/١٣٥.

٣١- في نظريةالرواية/١٣٤

٣٢- طشاري/٤٠.

٣٣- نفسه/٨١-٨٢.

٣٤- نفسه/١٧-١٨.

المصادر

اولا-الكتب

١-حديقة حياة-لطفية الدليمي-من منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق-٢٠٠٣.

٢- الرواية العراقية رصد الخراب العراقي في أزمان الدكتاتورية والحروب والاحتلال وسلطة الطوائف-سلام ابراهيم-المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات الدوحة-ديسمبر-٢٠١٢.

٣- الرواية العربية ورهان التجديد -د.محمد برادة-سلسلة كتاب دبي الثقافية(٤٩)-دار الصدى-ط١-٢٠١١.

٤- طشاري-انعام كجه جي-دار الجديد.نسخة موقع كتب.

٥- الغلامة-عالية ممدوح-دار الساقي-ط ١- بيروت-٢٠٠٠.

٦- فن الرواية-ميلان كونديرا-ترجمة:بدر الدين عروكي-مطبعة الأهالي--ط ١-دمشق-١٩٩٩.

٧- في نظرية الرواية-بحث في تقنيات السرد-د.عبد الملك مرتاض-سلسلة عالم المعرفة-٢٤٠-الكويت-١٩٩٨.

ثانيا- مقالات المجلات والمواقع الالكترونية

١- التجليات الثقافية والأيديولوجية للحدث في الرواية العراقية -قراءة في رواية طشاري للكاتبة أنعام كجه جي-حيدر جمعة العابدي موقع الحوار المتمدن-٢٠١٤/٩/٢٧.

٢- رواية عالية ممدوح الغلامة الممنوعة في معظم الدول العربية تصدر بالفرنسية-جريدة الأنباء الكويتية الأحد ٢٨ ديسمبر ٢٠١٢،عالية ممدوح :فضاءات-صحيفة الوسط البحرينية -العدد ١٦٨٦-الخميس ١٩ ابريل ٢٠٠٧.

٣- شعرية السرد في رواية طشاري-صحيفة البينة الجديدة-٢٧ ديسمبر ٢٠١٤.

٤- غلامة الوجع العراقي تقرأ بالفرنسية-هدى إبراهيم-ميدل ايست اونلاين-٢٠١٢/٢/٣.

٥- لطيفة الدليمي-موقع الناقد العراقي

٦- لطفية الدليمي في رواية سيدات زحل:سيرة ناس ومدينة تحتضر-أسامة غالي-مجلة الغد-العدد ٤٧٢ -الأربعاء ٨كانون ثاني ٢٠١٤ /٣.

٧- ينظر لغز عالية ممدوح-محمد رضا نصر الله- جريدة الرياض-١٤- ديسمبر ٢٠٠٤.

٨- مقاومة بمنازلكثيرة-قراءة في رواية انعام كججة جي طشاري-د.الراهبة مريم فرنسيس-..موقع الملتقى الثقافي الجامعي.

٩- ملاحقة التسمية في رواية الغلامة للروائية عالية ممدوح -مقداد مسعود- موقع الحوار المتمدن ٢٠١٤/٣/٢.